

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 46

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة لقمان

التاريخ: 30\03\2022 م

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

قبل أن نبدأ في بآية جديدة نقف على السؤال الذي وجهه سماحة الشيخ، بأن هذا التعبير ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ﴾ ونحوه من الآيات القريبة من هذا المعنى، والذي استفدت منه المدلول التالي: وهو أنه يدل على تسامي نفس النبي الأعظم ﷺ، حيث إنه يحزن ويتزعج ويتألم لكفر من كفر وضلالة من ضل، فإذا كان ذلك يدل على تسامي نفسه ﷺ فكيف تنهاه الآية عن ذلك؟

فإن النهي يكون عن شيء فيه حزاة، عن شيء فيه مفسدة وفيه قبح، وما فيه حزاة وقبح لا يكون عملاً يدل على تسامي النفس ورفعتها وعلو شأنها ومقامها.

الجواب عن ذلك: أن هذا الإشكال إنما يرد فيما لو حملنا المراد الجدي للنهي على معناه المتعارف، وهذا ما يحتاج إلى استدكار لمطلب ذكره العلماء في الأصول وفي البلاغة.

ذكر علماء البلاغة وبتبعهم القدماء من علماء الأصول أن للجمل الإنشائية وللجمل الخبرية معان بعضها حقيقي وبعضها مجازي، كالجملة الاستفهامية فإن معناها الحقيقي طلب الفهم، ولكن لها معان مجازية، فكل استفهام وارد في القرآن الكريم على لسانه تبارك وتعالى يحمل عندهم على المعنى مجازي؛ لأن طلب الفهم فرع الجهل، وهذا لا يصح في حقه تبارك وتعالى، فالاستفهام على لسانه لا بد أن يحمل على بعض المعاني المجازية.

مثال: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾¹ لا نستطيع أن نحمله على المعنى الحقيقي؛ لأن الله يعلم بأن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك، وإنما نحمله على الإقرار، والإقرار عندهم يكون من المعاني المجازية. هذا ما كان متعارفاً عند علماء البلاغة والقدماء من علماء الأصول.

لكن عند المحققين من علماء الأصول قالوا: لا نسلم أنه يوجد معنى حقيقي ومعنى مجازي، وحتى في مثل قوله تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾² يكون الاستعمال استعمالاً حقيقياً.

وفرقوا في الدواعي، دائماً في الاستعمال المجازي المستعمل يطلب الفهم، لكن مرة يكون الداعي لطلب الفهم هو الجهل، فيتوافق الداعي مع المستعمل فيه، وأخرى أطلب الفهم لكن بداعي آخر غير طلب الفهم، كداعي التوبيخ والتقرير والإبطال وما شابه ذلك.

فاختلاف إنما هو اختلاف في الدواعي، والدواعي لا تؤثر على الاستعمال؛ لدخالته في المراد الجدي بحسب تعبير المتأخرين من علماء الأصول.

وهكذا في الأوامر والنواهي ﴿فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ الاستعمال هنا ليس استعمالاً مجازياً، وإنما استعمل في الطلب بداعي التعجيز، وبداعي التسخير، وبالدواعي المختلفة التي تختلف باختلاف القرائن والأغراض.

فيما نحن فيه، هذا الإشكال إنما يتم فيما لو كان الداعي للنهي هو الزجر، وهو المبعوضة، فحينئذ نقول هذا لا يتناسب مع ما ذكرته من التدليل على رفعة النفس النبوية وتساميها، لكن علماء التفسير هنا حملوا النهي على التسلية وتطبيب خاطر، وهذا شائع عندنا.

كما عندما يستشهد ويسقط شهيد، وتذهب إلى تعزيتة فتقول للأب أو للأم لا تحزن، فإن ولدك له مقام رفيع عند الله في الجنة، هذا ليس معناه أن الحزن شيء قبيح، وإنما هو تسلية وتطبيب لخطره.

فعلى رأي القدماء من علماء الأصول تبعاً لعلماء البلاغة فلا تحزن استعمل مجازاً في التسلية ولتطبيب خاطر، وعلى قول المحققين من علماء الأصول لم يستعمل مجازاً، لكن الداعي كان تطبيب خاطر.

فبهذا يجاب عن هذا السؤال الذي هو في محله.

نبدأ بآية جديدة، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الارتباط السياقي: هذه الآية ما زالت ترتبط بالهدف الأصلي من سورة لقمان، إذا بدأنا من بداية السورة إلى ما نحن فيه نجد أن هذه السورة غرضها الأصلي المقارنة بين طائفتين من الناس، طائفة مقبلة على ربها، وطائفة معرضة عن ربها.

وبتعبير بداية السورة، طائفة المحسنين وطائفة الذين يشتركون لها حديث ليضلوا به عن سبيله، ثم بتعابير وبتوصيفات أخرى تابعت الآيات وتارة وصفتهم بمن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن أو بمن كفر وما شابه ذلك من الأوصاف.

ثم في السابق ذكرت الآيات دلائل على التوحيد والإيمان ظاهرة وباهرة في السماوات وفي الأرض وفي أنفسهم، ذكرت آيات آفاقية وآيات أنفسية.

وهنا كأن في الاستدلال والبرهان وصل إلى القمة، أن هذه الآيات الباهرة الكونية وضوحها كان إلى درجة أنك لو وجهت إليهم هذا السؤال على نحو الارتجال والفجاءة ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لجاء الجواب ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لشدة وضوح تلك الآيات والدلائل إذا غفلتهم وسألتهم بهذا السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

وهذا -واقعاً- من معجزات الفطرة، هناك دراسة مؤكدة على مؤمنين وملحدين -مع قطع النظر عن انتماء الدين للمؤمنين- وضعوا عليهم أجهزة متصلة بالقلب والعروق والدم بمثل ما يسمى بآلة كشف الكذب، وسئلوا هذا السؤال، فوجدوا أن الملحد هناك اضطراب عند جوابه، بخلاف المؤمن.

مما يدل على أنه حتى الإنكار باللسان مع أن قلبه على خلاف ذلك، وأن اعتقاده على خلاف ذلك. فإذن لشدة هذه الفطرة ولقوة الآيات الباهرة لو غفلت هؤلاء وسألتهم فإنهم سوف يجيبون بما هو الحق، تكملة البحث في هذه الآية في الدرس القادم.